﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ٥﴾ [الملك: 5]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بيان كمال السَّماء وزينتها بعد نفي النَّقْص عنها

لمّا أبان اللّهُ ﷻ عن عظيمِ صُنعه، وبديعِ خَلقه، ونبَّه العقولَ إلى ما انطوى عليه الكونُ من دقائقِ التَّقدير، ودعا الأبصارَ إلى التَّأملِ والتَّكرارِ في النَّظر، وكان السّامعُ أوَّلَ ما يُصَوِّبُ نَظَرَه إلى السَّماءِ؛ لِما لها من شرفِ المنزلة، وبديع الهيئة، وروعةِ التَّكوين، وعلوِّ البنيان، فكان بحيثُ يُتوقَّعُ الإخبارُ بما زيَّنها اللّهُ به من مصابيحَ تتلألأ، وزينةٍ تُبهر العقول[1] - انتقَلَ النَّظم الكريم مِن أدلَّةِ انتفاءِ الخَلَلِ عن خِلقةِ السَّماواتِ، إلى بَيانِ ما في إحدى السَّماواتِ مِن إتقانِ الصُّنعِ، فلَمّا نفى عنها في خَلْقِها النَّقصَ؛ بيَّن كمالَها وزينتَها، فكما نُزِّهَت عن العيبِ في خلقها وتكوينها، أُبرِزَ ما حُلِّيَت به من محاسنِ الصَّنعة، ودقائقِ الإتقان، وزينةِ الخلق[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿زَيَّنَّا﴾: (زين) تدُلُّ تصريفاتُها على حُسنِ الشَّيءِ وتَحسينِه[3]، فالزَّيْنُ نقيضُ الشَّينِ الَّذي هو القبحُ، وازَّيَّنَتِ الأرضُ، وتَزَيَّنَتْ، أي: حَسُنت، وبَهُجَتْ بنَباتِها، ثُمَّ عُمِّمَ اللَّفظُ لكلِّ ما يُتزيَّنُ به، فالزّينةُ: اسمٌ جامعٌ لكلِّ شَيءٍ يُتَزيَّنُ به، وزَيَّنَ الشَّيءَ: جعلَ الشَّيءَ ذا زينةٍ، أو إظهارهُ زينًا، أو نسبتهُ إلى الزَّينِ[4]، والمعنى هُنا في الآيةِ: جمَّلنا[5].

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 20/ 229، 230.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 177، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 21.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (زين).
(4) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (زين).
(5) السّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 875، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 10/ 80.

2) ﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾: المرادُ بها النُّجوم، وأصلُه من (صبح)، والصُّبحُ والصَّباحُ: أوَّلُ النَّهار، والإصباحُ في الأصل، مصدرُ: أصبحَ، والأصلُ فيه: نورُ النَّهار، وإنَّما قيل له: صُبْحٌ للضَّوء الذي يضيء للنّاس من النَّهار، وأصبحَ، أي: صارَ في وقت الصَّباحِ، أي: قبلَ طُلوعِ الشَّمس وبعدَ طُلوعِ الفجر، والمصابيحُ: السُّرج، سُمّيت بها الكواكِبُ والنُّجوم لإضاءتها[1].

3) ﴿رُجُومًا﴾: الرُّجومُ: جمعُ رَجْم، وهو مصدرٌ سُمّيَ به ما يُرجَمُ به، وأصل الرَّجم: الرَّمي بالرِّجام، أي: الحجارة[2]، والرُّجْمة بالضَّمِّ: واحد الرُّجَم، والرِّجام: وهي حجارةٌ ضِخامٌ، والشَّيطانُ الرَّجيمُ: المطرودُ عَنِ الخَيراتِ، وعن منازلِ المَلأ الأعلى، وفُسِّرت صِفَتُه هذه بالمرجوم بالكواكب، أي: شأنه وشأن قَبيلِه أن يُرْجَموا بالكواكب، أو: رجيم ملعونٌ مرجومٌ باللَّعنة مبعدٌ مطرود، وكلُّ (رجيم) في القرآن، فهو بهذا المعنى، فالرُّجوم الحجارة الَّتي تُرمى بها الشَّياطينُ[3].

4) ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾: أعْتَدَ الشَّيءَ: أعَدَّه، وأصلُهُ: أعدَدَ، أبدِلَتِ الدّالُ تاءً[4]، والعَتادُ والعُدَّةُ: ادِّخارُ الشَّيءِ قَبْلَ الحاجَةِ إليهِ، كالإعدادِ[5]، والعينُ والدّالُ تدورُ اشتقاقاتُها على مَعنيَين كُلّيَّين، أحدُهما: الإحصاءُ، وهو العَدُّ، والآخرُ: تهيئةُ الشَّيءِ، وهو الإعدادُ[6]، وعليه: فمعنى الإعداد في الآية الكريمة يَحْتَمِلُ أنَّه إعدادُ تقديرٍ وإيجادٍ، ويَحْتَمِلُ أنَّه إعدادُ تهيئَةٍ وتحضيرٍ[7].

5) ﴿ٱلسَّعِيرِ﴾: اسمٌ مِن أسماءِ جَهنَّمَ، من سَعر، و(سعر) تدُلُّ تصريفاتُه على اشتعال الشَّيءِ واتِّقاده وارتفاعه، ومِن ذلك السَّعيرُ، وهو سعيرُ النّار، واستعارها: توقُّدُها، والمِسعَرُ: الخشبُ الَّذي يُسعَرُ به، والسُّعارُ: حرُّ النّار[8]، وسَعَرتُ النّار

(1) ابن جرير الطبريّ، جامع البيان: 23/ 508، والفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 583.
(2) الراغب، تفسير الرّاغب: 2/ 528، وابن سيده، المُحكَم: (رجم)، والزَّمخشروي، أساس البلاغة: 1/ 341.
(3) ابن سيده، المحكم، والرّاغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (رجم)، والشَّوكاني، فتح القدير: 5/ 310.
(4) ابْنُ سيدَه، المُحْكَمُ: (عتد).
(5) الرّاغِبُ، المُفْرداتُ: (عَتَدَ)، والمَناويُّ، التَّوقيفُ، ص: 236.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عد).
(7) الصّاوي، حاشية الصاوي على الجلالين: 4/ 232، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 22، والجزائري، أيسر التَّفاسير: 5/ 395.
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سعر).

وأسعَرتُها، فهي مُسعَرَةٌ ومَسعورَةٌ[1]، والسَّعيرُ: أشدُّ أنواع النّار التهابًا و اشتِعالًا وإحراقًا، والمُسَعَّرَةُ: المُلتهبةُ، و(سعير) على وزن (فعيل) بمعنى: (مفعول)[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

إتقانُ الخلقِ وزينةُ السَّماء من أدلَّةِ الوحدانيَّة والقدرة

أعقبَ اللّهُ سبحانه ما سلَفَ من أدلَّةِ الإتقانِ والكمال، بذِكْرِ شواهدَ أخرى على تفرُّده بالوحدانيَّة، وكمال قدرته، فقال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾، فذَكَر أنَّه زيَّن أقربَ السَّماوات إلى الخلق بتلك النُّجوم السّاطعةِ المضيئة، الَّتي لم تقتصر حِكمتُها على الزّينة، بل جعلها سُبحانه رجومًا تُرمى بها الشَّياطين؛ إذا ما حاولت استراقَ السَّمع من ملأ السَّماء، ثُمَّ أعقب ذلك بوعيدٍ شديد؛ إذ أعدَّ لهؤلاء المُعْتَدين في الدّار الآخرة عذابًا هو أشدُّ الحريق؛ جزاءً وفاقًا[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغة التَّعبير بالواو في ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا﴾:

بيان ما انطوى عليه خلْقُ السَّماوات من حُسْنٍ بعد تقريرِ خُلوِّها من أدنى خَلَلٍ

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾، كلامٌ مستأنفٌ استئنافًا نحويًّا، مُفتتحٌ به غرضٌ جديد، سيق لابتداء ذِكْرِ أدلَّةٍ أخرى تُظهِر تمامَ قدرة اللّهِ ﷻ، وتُبرز كمالَ حكمتِه في الخلق، وهو في الوقت ذاتِه بيانٌ لِما انطوى عليه خلقُ السَّماوات من أبهى صوَرِ الجمال وروائع الحُسْن، بعد أن سَبَقَ تقريرُ خُلوِّها من أدنى خَلَلٍ أو نَقْصٍ[4].

---

(1) ابن دريد، جمهرة اللغة: (رسع).

(2) السِّجستاني، غريب القرآن، ص: 259، والباليساني، حسن البيان: 6/ 2600، والطَّنطاوي، التَّفسير الوسيط: 15/ 14.

(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 18/ 211، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 8/ 177، والشَّوكاني، فتح القدير: 5/ 310، والشِّنقيطي، أضواء البيان: 4/ 263.

(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 4، والدَّرويش، إعراب القرآن: 10/ 148.

سِرُّ الالتفات من الغَيْبَة إلى التَّكلُّم:

الإشارةُ إلى موضعِ العِبْرَةِ، والتَّوجيهُ إلى الدَّلالة القريبةِ مِن مَدارِكِ القُلوب

افتُتِح الكلامُ في الآيات السّابقة بصيغة الغَيْبَة، كما في قوله: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى﴾، وقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، وقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾، وقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾، ثُمَّ جاء الانتقالُ بعد ذلك إلى صيغة التَّكلُّم، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾، وقوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾، وهذا الالتفاتُ من الغَيبة إلى التَّكلُّم يَحْمِلُ في طيّاته تعظيمًا جليلًا؛ إذ جاءت صيغةُ (نا) الدّالّة على عظمة المتكلِّم، وهو أسلوبٌ من أساليب التَّفخيم في خطاب الجلالِ، ولم يكُن هذا التَّحوُّل في الخطاب إلّا لحكمةٍ بليغة؛ فإنَّ السَّماء الدُّنيا بما حوَتْهُ مِن نجوم وكواكبَ، تمثِّل إحدى أظهر الآيات الدّالَّة على القدرة الإلهيَّة الباهرة، وهي مِمّا يكثُر في القرآن الحثّ على النَّظر فيه والتَّأمُّل في خَلْقِها، فجاء الالتفاتُ هُنا إشارةً إلى موضع العِبْرَة، وتوجيهًا مباشرًا إلى الدَّلالة القريبة من مدارك القلوب المُتفكِّرة؛ إذْ بِذَلِكَ تترسَّخ الحقيقةُ، وتَدْنو من النُّفوس المُستبصِرَة[1].

سِرُّ التَّعبير باللّام و(قد) في ﴿وَلَقَدْ﴾:

توكيد مضمونٍ ظاهرٍ للعيان، يُدْرِكُه الكافرُ قبل المؤمن

صُدِّرت الآية الكريمة بقوله: ﴿وَلَقَدْ﴾، مُتضمِّنًا أسلوبَ القَسَم، وهو مِن أقوى أساليب التَّوكيد، قد سيقَ لإظهارِ بالغِ العناية بمضمونِ الجُمْلة، وإبراز عظمَةِ ما اشتملت عليه مِن مَعْنًى، فاللّام لامُ القسم، و(قد) حرفُ تحقيقٍ؛ اجْتَمَعا لتوكيدِ مضمونٍ ظاهرٍ للعيان، يُدْرِكُه الكافرُ قبل المؤمن، لكنَّ الكافر - لجحوده - يُعْرِضُ عنه، فجاء هذا التَّأكيد؛ ردًّا على إنكاره، وما ذُكِر في هذا الموضعِ هو مِن أعْظَمِ أدلَّةِ الإبداع؛ إذ يتعلَّق بزينة السَّماء الأقرب إلى الإنسان، تلك التي

(1) أبو موسى، خصائص التَّراكيب، ص: 200.

تُرى عيانًا وتبهر الأبصار ليلًا بكواكبها اللّامعة، وقد جعلها الحَقُّ سبحانه في آنٍ واحد زينةً بديعةً ورجومًا تُرمى بها الشَّياطينُ[1].

دلالة فعلِ التَّزيين على انفكاك المزيَّن عن زينته:

الـدَّلالـة على أنَّ المصابيح ليست جُزءًا من السَّماء

جاء التَّعبير بالفعل (زَيَّن)، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾؛ لأنَّ التَّزيين إنَّما يكون لشيءٍ مُنفصل عن الذّات، فيُقال: تزيَّنت المرأة بالحُليِّ، والحليُّ ليست من ذاتِ المرأة، وإنَّما هو شيءٌ يعرضُ لَها، ويقال: تزيَّنت بالكُحْل، فالكحل ليس منها، إنَّما هو شيء زائدٌ عليها، فالتَّعبير بالزّينة يَدُلُّ على أنَّ المصابيح ليست جُزءًا من السَّماء، فالسَّماء مزيَّنة بكواكبَ مضيئةٍ باللَّيل كما يزيّن النّاسُ منازلهم بالسُّرج[2].

بلاغة الإدماج في ذِكْرِ التَّزيين:

إدراجُ لفتةِ الامتنانِ لتُنَبِّه القلوبَ، وتُشعِرَ الإنسانَ بجمال العطاء الإلهيِّ

في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ يَلوحُ وجهٌ من وجوه البلاغة، وهو الإدماج؛ إذ جاءَ ذِكرُ التَّزيين في سياق الاستدلال على القُدرة، مُدمَجًا بالامتنان، على معنى: زيَّنّاها لكم، على نَحْو ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ۝٦﴾ [النّحل: 6]، ففي ثَنايا الحِجاج العقليِّ أُدْرِجَت لفتةُ الامتنانِ؛ لتُنبِّه القلوب، وتُشعِرَ الإنسان بجمال العطاء الإلهيِّ، ثُمَّ ما لبث أن انتقلَ النَّظم الكريم من هذا التَّزيين الظّاهر، إلى الكَشْفِ عن غرضٍ آخَرَ، وهو رجْمُ الشَّياطين؛ تمهيدًا للانتقال إلى وعيدهم الشَّديد في الآخرة، بل ووعيد مَن اتَّبعهم، فكان الإدماجُ هنا واصلًا بين أدلَّةِ القدرة، وجمالِ الخَلْقِ، وشدَّة العقاب[3].

بلاغة التَّعبير في قوله: ﴿زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ﴾ بَيْنَ الحقيقة والمجاز:

الإيماءُ إلى الجمال والبهاء

يجوز أن يكون قوله: ﴿زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ﴾ واقعًا على سبيل الاستعارةِ؛

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 9/ 4.
(2) المراغي، تفسير المراغي: 29/ 7، والسّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 876.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 21.

إذ شُبِّهت السَّماء بامرأة تتجمَّل، وأُجري عليها فِعْلٌ من خصائصها، وهو التَّزيُّن، فكان من باب الاستعارة المكنيَّة؛ لما فيه من الإيماء إلى الجمال، وحُذِفَ المُشبَّه به، ثُمَّ رُمِزَ إلى المرأة بشيء من خصائصها، وهو التَّزَيُّن. ويجوز حملهُ على الحقيقةِ، فيكون من باب الزّينة الحقيقيَّة الَّتي هي مُطلقة، بدليلِ ذِكْرِ المصابيح بَعْدُ، وهو الأظهر.

إسناد الفعلِ إلى ضمير التَّعظيم:

الـدَّلالـة على أنَّ هـذا الفعلَ الجليلَ لا يَصدُر إلّا عـن عظيمٍ مُقتدرٍ

جاء التَّعبير بضمير الجمع (نا) الدّال على التَّعظيم في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾؛ ليؤكِّد أنَّ هذا الفعل الجليلَ - وهو تزيينُ السَّماء بالمصابيح - لا يَصْدُر إلّا عن عظيم مُقتدر، فكما أنَّ خَلْقَ السَّماوات في ذاته آيَةٌ من آيات القُدرة؛ فإنَّ تَزْيينَها على هذا النَّحو البديع لا يكون إلّا من عظيم فعّال لما يريدُ ﷻ.

فإسنادُ الفِعْلِ إلى ضمير العظمة يُضْفي على الفعلِ نفسِه مسحةً من الجلال والهيبة، ويُلفت أنظارَ السّامعين إلى عظمة هذا الخَلْقِ العجيب؛ إذ إنَّ عظمة الفاعلِ توحي بعظمة الفِعْلِ، ومن فإنَّ هذا الأسلوب البلاغيَّ يَحْمِلُ في طيّاته دعوةً ضمنيَّة إلى التَّأمُّل العميق، والتَّوقُّف المتأنّي أمام هذا الحدثِ الكونيِّ العظيم؛ لاستخلاص ما فيه من أدلَّة القُدْرَة، وآثار الحكمة، وإشراقاتِ الجمال الرَّبّانيِّ.

دلالةُ حَذْفِ مُتعلَّق ﴿زَيَّنَّا﴾:

التَّزيين وقع لِكُلّ من يرى السَّماء الدُّنيا من الإنس والجنّ

حُذِفَ متعلِّق الفعل ﴿زَيَّنَّا﴾، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾، وهو واقعٌ محلَّ المفعول الثّاني، وهذا لأنَّ من أهمِّ فوائد حذف المُتَعَلَّق إفادةَ العموم، فكأنَّه قال: (ولقد زينا السَّماء الدُّنيا لكلِّ مَنْ يحصل له التَّزيين)، (أو لِكُلِّ من يرى تلك الزّينة، أو ينتفع بها، سواءٌ أكان انتفاعًا ذاتيًّا أو انتفاعًا عَرَضيًّا)، فالتَّزيين وقع لِكُلِّ من يرى السَّماء الدُّنيا من الإنس والجنِّ وغير ذلك من مخلوقات الله تعالى.

سَبَبُ تقييد السَّماء بالدُّنيا، ونُكْتَةُ مجيئها بصيغة أفعل التَّفضيل:

كون السَّماء الدُّنيا منصوبةً لأنظار المخاطَبين، وأدلَّةُ الإتقانِ فيها أظهرُ وأقرب

وصفُ السَّماءِ بـ ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾، لا يُراد به نفيُ وجود الزّينة في سائر السَّماوات، وإنَّما هو توصيف يُعبِّر عن القرب الحِسّي، فـ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ صفة للسَّماء، على وزن (فُعلى) من (أدنى)، كما يُقال: العُليا، والمُثلى، والفُضلى، أي: أقربُ السَّماوات إلينا، والسِّرُّ في هذا التَّعبير: أنَّ زينة السَّماء الدُّنيا تُرى عيانًا؛ لقُربها من الأبصار، فهي المشهودةُ المحسوسة، والتي لا يُنكرها أحدٌ، وإن كان في السَّماوات العُلا من الزّينة ما لا نعلَمُهُ. وقد خُصَّت السَّماء الدُّنيا بالذِّكرِ في هذا السّياق؛ لتكون مثالًا بارزًا لإتقان الصُّنْع، فكان ذِكْرُها من باب التَّنصيص على فردٍ من أفراد العامِّ؛ لأجل الإيضاح والتَّفصيل، فالسَّماء الدُّنيا منصوبة أمامَ أنظارِ المُخاطَبين، وأدلَّةُ الإتقان فيها أظهَرُ وأقرب، وهي أقربُ السَّماوات إلى الأرض، والتي تشرف على عالمنا، وتبدو للنّاظرين وكأنَّها ساحة مُعلَّقة مُزدانة بمصابيحَ تتلألأ زينةً وجمالًا، ومن هذه السَّماء القريبة تَنْطَلِقُ الشُّهُب النّاريَّة والرُّجوم السَّماويَّة، تُطارد بها الشَّياطينَ؛ إذا ما حاولت التَّسلُّل إلى الملأ الأعلى؛ طلبًا لاستراقِ السَّمع، فمن خلالها يكون الانتقالُ سهلًا إلى التَّحذير مِنَ الشَّياطين، وكشف مكايِدِهم، وبيان سوء مصير أتباعِهم[1].

فائدة التَّعدية بالباء في ﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾:

بيان أنَّ التَّزيين ليس مختصًّا بالسَّماء الدُّنيا

الباء في ﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾ بيانيَّة، وتُفيد الإلصاقَ أيضًا، أي: إنَّما وقع التَّزيين بالمصابيح، والتَّزيين ليس منحصِرًا على السَّماء الدُّنيا، فلا يمنع كون بعض الكواكب مركوزةً في السَّماوات فوقها[2]، فتحصَّل إمكانُ وجودِ هذه المصابيح في غيرها، رأيناها، أو لَم نرَها[3].

(1) الزَّمخشري، الكَشّاف: 4/ 577، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 21، والخطيب، التَّفسير القرآني: 15/ 1053.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 229.

(3) الصّاوي، حاشية الصاوي على الجلالين: 4/ 231.

فائدة وصف السَّماء بالدُّنيا بَدلَ الأولى:

مُراعاة القرب مِن منظور الإنسانِ، لا لمَوْقِعِ الكواكبِ في مدارج السَّماوات

من لطائف التَّعبير القرآنيِّ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾؛ إذ اختير وصفُ ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ دون (الأولى)؛ لأنَّ ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ تدلُّ على القرب الحسّيِّ بالنِّسبة للنّاظر من أهل الأرض، لا على التَّرتيب العدديّ، فالسَّماء الدُّنيا هي الأقربُ إلى أبْصارِنا، وهي التي تَبْدو فيها الزّينة؛ لأنَّ السَّماواتِ إذا كانت شفّافَةً؛ فالكواكب سواءٌ أكانت في السَّماء الدُّنيا أم كانت في سماواتٍ أخرى فوقها، فلا بُدَّ أن تظهر في السَّماء الدُّنيا، وتلوح منها، فيتراءى للنّاظر من الأرض أنَّ النُّجوم قد رُكِّبت فيها[1]، فلا يُنافي إخباره تعالى أنَّه زيَّن السَّماء الدُّنيا بمصابيح أن يكون كثيرٌ مِن النُّجوم فوق السَّماوات السَّبع، فإنَّ السَّماوات شفّافة، وبذلك تحصل الزّينة للسَّماء الدُّنيا، وإن لم تكن الكواكبُ فيها[2].

فالوصف بالدُّنيا - وهو من الدُّنوِّ والقربِ - جاء لمُراعاة منظور الإنسان، لا لموقع الكواكب الحقيقيِّ في مدارج السَّماوات.

دلالة اختيارِ لَفْظِ المصابيح المُشتقِّ من الإصباحِ:

إنارَةُ الكَواكِبِ الأرضَ لَيْلًا

جاء لفظ (مصابيح)، في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾، مُشتَقًّا من الإصباح؛ لأنَّه لمّا كان الصُّبح في أوَّل النَّهار ينبَثِقُ من الظَّلام، فيكون الضَّوءُ شديدًا؛ فكذلك هذه المصابيح في الدُّنيا في اللَّيل، تُنير الأرضَ، فيكون ضوؤُها شديدًا. وقد يَرِدُ على ذلك اشتباهُ أنَّ ضوءَها في عين النّاظر ليسَ مثلَ ضوءِ الصُّبح، ويُجاب عنه: بأنَّها مثلُه، لكنْ لبُعد مكانِها اختلفت في عَيْنِ النّاظر، ولم تختَلِفْ على الحقيقة، فضوءُ الصُّبح من الشَّمس، والشَّمس أحدُ هذه المصابيح، فلمّا بَعُدت؛ خفتَ ضَوْؤُها، فقد تكون في السَّماء الدُّنيا

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 583، وإسماعيل حقي، روح البيان: 10/ 81.
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 876.

على بُعْدٍ، وقد تكون في السَّماوات التي فوقها؛ لأنَّ السَّماواتِ على ما قيل: إنَّها شفّافة[1]، ولمّا كانت هذه المصابيح من القوَّة بمكانٍ؛ جازَ لنا أن نراها على أنَّها في الدُّنيا مع أنَّها في السَّماوات التي فوق الدُّنيا.

الاستعارَةُ في التَّعبير بالمصابيحِ عَنِ النُّجومِ:

إظْـهـارُ المَشْـهَـدِ الكونيِّ في صورةٍ جماليَّة مُبْهِرَةٍ

في قوله تعالى: ﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾ استعارة تصريحيَّة بديعة؛ إذ شُبِّهت النُّجوم والكواكب بالمصابيح، وحُذف المشبَّه - وهو النُّجوم - وأُبقي المُشبَّه به - وهو المصابيح - على سبيل الاستعارة التَّصريحيَّة الأصليَّة، وذلك لأنَّ العادة أنَّ النّاس يزيِّنون بيوتهم ومساجدَهم بالمصابيح؛ لِما فيها من إضاءَةٍ وحُسن منظَرٍ، فجاء التَّعبير القرآنيُّ مُستحضرًا هذا المعنى، لكنْ مع فارقٍ بيِّن، فمصابيحُ السَّماء لا تُضاهى في نورها وجمالها، فهي أبهى منظرًا، وأشدُّ إشراقًا[2]، وهذا التَّشبيه يُضفي على المشهد الكونيِّ صورةً جماليَّة مُبهرة؛ إذ تبدو النُّجوم في أعين النّاظرين كأنَّها جواهرُ منثورة، تتلألأ في صفحة السَّماء، فتزيدُها بهاءً ورونقًا، وكأن السَّماء قد ازدانَتْ بقلائدَ مِن نورٍ، في مشهد يُبهر الأبصارَ، ويَهْدي القلوبَ.

سِرُّ التَّعبير بالتَّشبيه البليغ على وجْهٍ في المعنى:

بـيـان أنَّ تلك الـنـجـوم والـكـواكـب لا يُدانيها شيءٌ في إشراقِها وجمالِ مَنْظَرِها

يجوز أن يكون قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ واردًا على التَّشبيهِ البليغِ، بأن شُبِّهت فيه النُّجوم بالمصابيحِ في حُسن المنظَرِ وضياء النّور، فصُرِّح بالمشبَّه به - وهو المصابيح - وحُذِف المشبَّه - وهو النُّجوم - لدلالة السّياق عليه، فجاء التَّشبيهُ مؤكَّدًا، خاليًا من الأداةِ ووجه الشَّبه، فالمعنى: النُّجوم مصابيحُ تضيء صفحةَ السَّماء، وتزيّنها كما تُزيَّن المجالسُ والمساكن بالمصابيح، لكنَّها مصابيحُ لا يُدانيها شيءٌ في إشراقها وجمالِ منظرها[3].

(1) الثَّعالبي، الجواهر الحسان: 5/ 458، والقنوجي، فتح البيان: 14/ 234.
(2) القونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 19/ 188، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 10/ 150.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 21.

سِرُّ ذِكْرِ المصابيح بصيغةِ مُنتهى الجموع:

الدَّلالة على كثرة هذه المصابيح وتنوُّعها

وردَ لفظُ (مصابيح) على زِنَةِ (مفاعيل)، وهو من صيَغِ منتهى الجموع، أي: مُنْتَهاها في الكثرة والتَّنوُّع والعدد؛ لأنَّ الجمع قد يُجْمَعَ أكثر من مرَّة، فجمعٌ، وجَمْعُ الجمع، وجَمْعُ جَمْعِ الجمع، لكنْ لِكُلِّ جَمْعٍ لها يُعطي كثرةً أكثَرَ، هي هُنا الدَّلالةُ على كثرتها في العدد وفي النَّوع، وفي الشَّكل، وفي اللَّون، ونحو ذلك، وهو ما تشهد له العَيْنُ النّاظرة في علوم الأفلاك[1].

دلالةُ تنكير كلمةِ (مصابيح):

الدَّلالة على التَّعظيم والتَّكثير

جاء لفظُ (مصابيح) في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ مُنَكَّرًا؛ لِما في التَّنكير من دلالةٍ بليغة على التَّعظيم والتَّكثير؛ إذْ لا يُراد بها مجرَّدُ مصابيحَ معلومةٍ مألوفة، بل هي مصابيحُ خارجة عن نطاقِ الإدراك البشريِّ، في حجمها وضوئها وجمالها، لا تُشبه ما اعتاده النّاس في دورهم ومساجدهم، فالتَّنكير هنا يفيد أنَّها مصابيحُ عظيمة في قدرها، كثيرةٌ في عددها، مُختلفة في هيئتها، تُنير صفحة السَّماء، وتُبهِر النّاظرين[2].

فائدة الإضمار في: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا﴾:

تنوُّع المعاني وتعدُّد الاحتمالات دلالة على سعة التَّعبير القرآنيّ

في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ يعود ضمير الغَيبةِ في (جعلناها) بِحسب الظّاهر إلى المصابيح، أي: إنَّ هذه المصابيح قد جُعِلت رجومًا يُرمى بها الشَّياطين، وهو من قبيل إسناد الفعلِ إلى الكُلِّ، مع أنَّ الفاعل الحقيقيَّ بعضُه، فبعضُ النُّجوم تبدو مضيئةً، ثُمَّ تلوح منقضَّة، وتُسمَّى الشُّهبَ، ويكون هذا الإسناد إلى الكلِّ، كما يُسند الفعلُ إلى القبيلةِ، فيقال: قاتَلَتِ القبيلة، والمُراد: بعض أفرادها[3].

(1) الجيلاني، تفسير الجيلاني: 6/ 132.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 21، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 9.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29/ 21.

وقد يُحْمَلُ المعنى على أنَّ الشُّهب الَّتي تُتبَع بها الشَّياطين هي جزءٌ مُنْفَصِلٌ مِن جرم النَّجم أو من نارِه، فليست النُّجومُ نفسُها هي التي تُرمى، بل تَخْرُج منها نارٌ أو لهب كقبسٍ يُنتزَعُ مِن مَوْضِعِه، مع بقاءِ النَّجمِ في موضعِهِ لا يَزولُ عنه[1].

وهناك وجْهٌ آخَرُ في المعنى، وهو أن يَعودَ على السَّماء الدُّنيا نفسِها، بتقدير: (وجعلنا منها رُجومًا للشَّياطين)، فحُذِف حرفُ الجرِّ، أو نُزِّل الموضع الذي تخرُج منه الشُّهب منزلةَ نفسِ الشُّهب، على سبيل المجازِ في الإسنادِ المكانيِّ[2].

وفائدةُ عودِ الضَّمير عليها كُلِّها دون تعيينِ اللَّفظ الصَّريح في ﴿وَجَعَلْنَٰهَا﴾، هو تنوُّع المعاني وتَعَدُّد الاحتمالات، فتكون: (جعلناها)، أي: المصابيح، أو الشُّهُب المُتَّخذة من المصابيح، أو السَّماواتِ نفسَها، والمعنى: جعلنا هذه السَّماوات رجومًا للشَّياطين بحيث من يقترب منها يَحْتَرِق، وهكذا تتعدَّد الأوجه البيانيَّة في هذا الضَّمير؛ دلالةً على سعة التَّعبير القرآنيِّ، ودقَّة تنزيل الألفاظ في مراتبها البلاغيَّة.

بلاغة التَّعبير بالمجاز العقليِّ:

ذهب بعض المُفسِّرين إلى أنَّ الضَّمير المنصوب، في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾، يعود إلى السَّماء الدُّنيا، بتقدير: (وجعلنا منها رُجومًا)، وهذا التَّأويل يستقيم على وجهين؛ إمّا أن يكون من باب حذفِ حرف الجرِّ، أي: جعلنا من السَّماء الدُّنيا رُجومًا، وإمّا أن يكون من قبيلِ المجاز العقليِّ؛ إذ نُزِّل المكان - وهو السَّماء - منزلة ما يَصْدُر منه، فجُعِلت السَّماءُ نفسُها كأنَّها هي التي تُلقي الرُّجوم[3]، وفي هذا إيحاءٌ بالعظمة والرَّهبة؛ إذْ حين تُنسب

وقْـعُ الـرَّجـم أهْيَبُ، والمشهد أبـلـغُ، والتَّأثير أعـمـقُ عـنـد نسبة الرَّجم إلى السَّماء

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 223، والسّيواسي، عيون التَّفاسير: 4/ 232.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 10/ 223، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 22.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 22.

الرُّجوم إلى السَّماء نفسِها، يتعاظَمُ أثرُها في نفس السّامع، ويُشْعِرُ أنَّ السَّماء بأسْرِها قد سُخِّرت لصدِّ عدوان الشَّياطين، فيكون وقع الرَّجم أهيبَ، والمشهدُ أبلغَ، والتَّأثيرُ أعمقَ.

فائدة التَّعبير بـ ﴿رُجُومًا﴾ مادَّة وصيغةً:

الدَّلالة على كثرة الشَّياطين وكثرة الـرُّجـوم الـتـي يُرجَم بها وقوَّتها

المُستعمَل في الرَّجم هو الحجارة، وهو الإلقاء والرَّمي، والرُّجوم: جمعُ رَجْم، وهوفي الأصل مصدر: رجمه رَجْمًا - من باب نصر - إذا رماه بالرِّجام، أي: بالحجارة، فهو اسم لِما يُرْجَم به، أي: ما يَرْمي به الرّامي غيرَه من حجَرٍ ونحوه؛ تسميةً للمفعول بالمصدر، مثل: الخلق، بمعنى: المخلوق[1]، فعبَّر بالرَّجم، والمُراد منه اسم المفعولِ؛ للدَّلالة على قوَّة الرَّجم، وجُمِعَ رَجْمٌ، وهو مصدرٌ، مع أنَّ المصادر لا تُجمع - في الأصلِ - لأنَّ المصدرَ ها هُنا يُراد باسم المفعول، ولا يُراد به معناهُ المصدريُّ، وهذا الجمع يدلُّ على كثرة الشَّياطين وكثرة الرُّجوم التي يُرجَم بها، ولهذا جُمِع الرَّجم على رجوم، فقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا﴾.

ويجوز أن يكون لفظ ﴿رُجُومًا﴾ باقيًا على مصدريَّته، وجُمِعَ المصدَرُ ههنا؛ لأنَّ له حكمَ الاسم الجامد[2].

فائدة تنكير ﴿رُجُومًا﴾:

الـدَّلالـة على التَّعظيم والقوَّة والشِّدَّة

نُكِّر لفظُ ﴿رُجُومًا﴾، مِنْ قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا﴾؛ لإفادَةِ التَّعظيم والقوَّة والشِّدَّة، فهو تنكيرٌ يُبرز ما في هذه الرُّجوم من قوَّة عظيمةٍ وشدَّة نافذة، تجعَلُها صالحةً لرَدْعِ الشَّياطين وطَرْدِهم، بل وإرهابهم، فلا يَتَجَرَّؤون على تخطّي حدودِ السَّماء.

فائدة التَّعريف في ﴿لِّلشَّيَٰطِينِ﴾:

عُبِّر بالشَّياطين معرفةً في قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا

(1) الطَّنطاوي، التَّفسير الوسيط: 15/ 13.

(2) القونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 19/ 189، والشَّوكاني، فتح القدير: 5/ 310، والآلوسي، روح المعاني: 15/ 10.

لِّلشَّيَٰطِينِ﴾، فكأنَّه قال: للشَّياطين التي تستبق السَّمع، وتسترقه[1]، فالتَّعريف هُنا يصلح أن يكونَ للعهدِ العلميِّ، بتقدير: (للشَّياطين التي تُريد أن تَسْتَرِق السَّمع)، أو أن تكون (أل) جنسيَّة أو استغراقيَّة، كأنَّه قال: (رجومًا لِكُلِّ شيطان يُريد أن يقترب من السَّماء، أو يسترق السَّمع)[2]، وكُلُّها معانٍ تُعزِّز هيبةَ هذه الرُّجوم، وتُبرز حراسةَ السَّماء حراسةً مُطلقة لا يُخترَق فيها الحدُّ إلّا وقد وُجِّه بعذاب آنيٍّ.

تعزيز هيبة هذه الرُّجوم وإبراز حراسةِ السَّماء حراسةً مُطلقة

فائدة التَّعبير بمادَّة (أعدَّ):

قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾، معناه: أعدَدْنا للشَّياطين في الآخرة بعد الإحراق في الدُّنيا بالشُّهب عذابَ النّار المُستَعِرَة الموقَدَة[3]، والتَّعبير بصيغة الإعدادِ فيه معنى التَّهكُّم بهم؛ بسببِ فسادهم وإفسادهم، وذلك أنَّ أصل ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ من الفعل (أعدَّ)، ومعنى الإعداد: التَّهيئة لاستقبال الضُّيوف، وهو كذلك أيضًا في المعنى العُرْفيِّ، فاستعمالُهُ في العذابِ استعارةٌ تهكُّميَّةٌ.

التَّهكُّم بهم بسببِ فسادهم وإفسادهم

سِرُّ انتخاب الفعل الماضي (أعْتَدَ):

استُدِلَّ بقول الله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾، على أنَّ النّار مخلوقةٌ بالفعل في الزَّمن الحاضر؛ إذ إنَّ استعمال الفعل الماضي (أعتدنا) يدلُّ على أنَّ الإعدادَ قد وقع، وانتهى، فهو خبرٌ عن أمرٍ مُتحقِّق، فجاء التَّعبير بصيغة الماضي؛ ليؤكِّد أنَّ العذاب قد أُعِدَّ، وهُيِّئَ مُسْبَقًا، وهذا من أقوى الأدلَّةِ على سَبْقِ خلق النّار ووجودِها الآن[4]، ففي هذا الأسلوب توكيدٌ لحقيقة قائمة، وتحقيقٌ للوعيد، واستحضارٌ لَهُ كأنَّه واقعٌ مشهود.

الدَّلالة على أنَّ العذاب قد أُعِدَّ، وهُيِّئَ مسبقًا، وأنَّ النّارَ مخلوقةٌ الآن

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 22، والسّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 876.
(2) الجزائري، أيسر التَّفاسير: 5/ 395.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 229، والرَّسعني، رموز الكنوز: 8/ 202.
(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 30/ 586.

فائدة التَّعبير بالسَّعير، وأثَر تعذيبِ الجنِّ بالنّار:

التَّعبير بما يَدلُّ على أقصى درجات العذاب الذي لا يُقاس بحرِّه ولهيبهِ شيءٌ

إنَّ اختيار لفظ ﴿ٱلسَّعِيرِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾، دون أن يَرِدَ النَّظمُ القرآنيُّ: وأعتدنا لهم عذاب النار أو عذابَ جَهنَّم؛ لم يأتِ عبثًا، بل لحكمة بلاغيَّة ودلاليَّة بالغَةٍ، فالسَّعيرُ: اسمٌ على وزن (فعيل) بمعنى (مفعول)، مِنَ الفِعْلِ (سَعَّر)، أي: أوقد النّار، وأشعَلَها، والسَّعير: هو لهب النّار المتأجِّج، أي: أشدُّ طبقات النّار توقُّدًا واشتعالًا.

وهذا التَّعبير يُناسب المقام؛ لأنَّ المقصود هنا عذابُ الشَّياطين، فجاء التَّعبير بما يدلُّ على أقصى درجاتِ الاحتراق، وكأنَّ المعنى: أعدَدْنا لهُم عذابًا شديدًا لا يُقاس بحرِّه ولهيبه شيءٌ[1]، وهو أشدُّ ممّا خُلِقوا منهُ، فلا يقولنَّ قائل: كيف يُعذَّب الشَّيطان بالنّار، وهو مخلوق منها؟ فالجوابُ: أنَّ نار جهنَّم - وخاصَّةً السَّعيرَ - أشدُّ من مادَّة النّار التي خُلِق منها الشَّيطان، كما أنَّ الشَّياطين تحوَّلوا عن أصل المادَّة التي خُلقوا منها، كما تحوَّل الإنسانُ مِن طينٍ إلى لَحْمٍ وعَظْمٍ وعصَبٍ ودَمٍ[2].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 29/ 22.
(2) الطَّنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 14، والجزائري، أيسر التَّفاسير: 5/ 395.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والستون،
سورة المُنافِقُونَ من الآية 05 إلى سورة المُلك الآية 11
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والستون، سورة المُنافِقُونَ من الآية 05 إلى سورة المُلك الآية 11
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 62 ، 806 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-640-02-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 62 : المجلد الثاني والستون، سورة المُنافِقُونَ من الآية 05 إلى سورة المُلك الآية 11.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-640-02-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-5378070 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"